
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

الفلاحة المغربية
بين التطور والجمود

ذ. محمد حجاج الطويل

ـ هل عرفت الفلاحة المغربية تطورا أو ثورة شبيهة بالثورات الفلاحية في أوربا خلال تاريخها الطويل؟

ـ هل تمكن المغاربة من استغلال المعطيات الطبيعية لمجالهم بشكل جذري؟

ـ هل أمكن للمغرب تحقيق الأمن الغذائي في فترة من فترات تاريخه المديد؟

أسئلة محورية وإشكاليات كبرى ماتزال في حاجة إلى جهود الباحثين وتكافل مختلف التخصصات ؛ أما ما توفره النصوص على اختلاف أنواعها ومصادرها، وبعد الدراسة والتمحيص فقد مكنني تحليلها من الخروج ببعض الاستنتاجات التي صغتها في قالب تركيبي هو موضوع الجزء الأول من هذه المقالة[1].

مرت الفلاحة المغربية الوسيطية من ثلاث مراحل كبرى :

ـ تبتدئ المرحلة الأولى من منتصف القرن الأول الهجري/النصف الثاني (للقرن 7 م) وتنتهي في منتصف القرن 5 هـ / 11 م.

ـ المرحلة الثانية تمتد من نهاية المرحلة الأولى إلى النصف الثاني من القرن 8 هـ / 14 م.

ـ المرحلة الثالثة تبتدئ من نهاية المرحلة الثانية إلى منتصف القرن 10 هـ / 14 م.

صحيح ليس ثمة ثورات أو تحولات كبرى اعتمدنا عليها في هذا التقسيم، لكننا ارتكزنا على مجموعة من المتغيرات التي أثرت بشكل كبير على الميدان الفلاحي بصفة خاصة وعلى النسيج الاقتصادي والاجتماعي للمغرب في ذلك الزمن. وسيتضح ما ذهبنا إليه من خلال عرض كل مرحلة على حدة.

1 ـ المرحلة الأولى : لما دخل الفاتحون المسلمون الأولون إلى المغرب في بداية النصف الثاني من القرن 1 هـ/7 م كان الوجود البيزنطي في البلاد قد أصبح هامشيا ويقتصر على الشريط الساحلي لشبه جزيرة طنجة، إذ كان برابرة المناطق الواقعة ماوراء الليمس الروماني قد اكتسحوا موريطانيا الطنجية، واستولوا على المستعمرات الرومانية المحصورة في المثلث : طنجة ـ سلا ـ وليلي، وذلك تحت تأثير عاملين أساسيين :

ـ أولهما : انسحاب الحاميات العسكرية الرومانية للدفاع عن مستعمراتها في شبه جزيرة إيبيريا،

ـ وثانيهما : التغيرات المناخية التي أثرت على السكان بتوالي سنوات القحط.

كان المثلث الروماني متطورا زراعيا فوفر لهؤلاء السكان نموذجا كان له أثره الكبير على بعض الجوانب الفلاحية، واحتلت المجموعة المصمودية كل المناطق الرطبة في المغرب، من جبال غمارة إلى سوس، أما المجموعتان البربريتان صنهاجة وزناتة فقد امتد مجالهما على طول السفوح الجنوبية والشرقية لجبال درن وشرق نهر ملوية ؛ لكن بعض قبائلهم أو بطونها وجدت في منطقة غمارة وفي سهل دكالة وفي درن الغربي، أما القبائل الزناتية فقد ساكنت المجموعتين خاصة شرق جبال غمارة وفي المغرب الشرقي والصحراء.

عرفت هذه الاتحاديات القبلية الثلاث ـ والتي كونت ساكنة المغرب في هذه المرحلة ـ عرفت حياة الاستقرار والترحال، فالمصامدة استقرت بعض قبائلهم أو بطون منها منذ وقت مبكر في جبل درن والسهول الأطلنتيكية وعندما جاء الفاتحون المسلمون كانت بعض تجمعاتهم السكنية قد وصلت إلى مستوى المدن مثل أغمات، نفيس وإيجلي، أما صنهاجة الصحراء فقد استقرت بعض قبائلهم مثل لمطة جنوب السوس الأقصى قبيل الفتح الإسلامي بقليل واستطاعوا بدورهم تكوين تجمعات سكنية وصلت إلى مرتبة مدينة أهمها نول لمطة.

كان بروز قبائل زناتة في المنطقة صحبة الجيوش الاسلامية الفاتحة وتمكنت بعض قبائلهم من السيطرة على معظم المثلث الروماني وامتداده شرقا عبر ممر تازة، وأهم هذه القبائل مكناسة وأوربة، لعبت هذه القبائل إلى جانب غمارة التي سيطرت على سهل الهبط دورا مهما في استمرار الإنتاج الفلاحي في بعض المستعمرات الرومانية القديمة فاستقرت معظم هذه القبائل نتيجة ممارستها الزراعة وتربية المواشي، واستمرت بعض البطون والعشائر تعيش على وتيرة نمطها القديم المرتكز على الرعي والانتجاع ؛ رغم حياة الاستقرار التي عرفتها الاتحاديات الثلاث فإن المرحلة الأولى عرفت بداية التحول الكبير من حياة الرعي التي كانت غالبة قبيل الفتح الإسلامي إلى حياة الاستقرار والزراعة ؛ وبدأ التشجيع الرسمي على هذا التحول من قبل الولاة وعمالهم في المنطقة، لكن عدم وضوح سياسة الأمويين في المغرب من جهة وتعسفات

بعض عمالهم من جهة أخرى أدى إلى قيام ثورات محلية تحت غطاء النزعة (الخارجية) ضد هؤلاء العمال فكانت الحروب الخارجية في بدايتها مصدر اضطراب عرقلت النشاط الاقتصادي بصفة عامة، ذلك أن الأطراف المتحاربة كانت تعمد إلى كل أساليب المقاومة والقهر والتضييق على الخصم بإحراق المزروعات وقطع الأشجار حول التجمعات السكنية إلى غير ذلك من مظاهر التخريب[2].

بعد نجاح الثورات الخارجية واستتباب نفوذ زعمائها في البلاد أسست المجموعة الزناتية والمصمودية كيانات سياسية مستقلة (إمارة برغواطة في تامسنا - إمارة بني صالح في نكور وإمارة الأدارسة في وليلي) واستطاعت هذه الكيانات السياسية أن تعيد حياة الاستقرار وتعاطي الزراعة إلى مناطقها - وقد عرف النشاط الاقتصادي وخاصة الفلاحة زخما وتطورا ملموسا. إذ استغل آل ادريس منطقة الهبط والمناطق المجاورة لمدينة فاس وازدهرت نتيجة لهذا التطور عدة مدن ومداشر بسبب مبادلاتها التجارية المرتكزة أساسا على المنتجات الفلاحية والتي تعدت النطاق المحلي لتصل إلى الأندلس وافريقية[3] ؛ وما بين مدينة فاس ومدينة تازة نمت العديد من الحصون وتأسست المدن الزناتية وأصبحت التجمعات السكنية على درجة كبيرة من التقارب حتى أن بعض الجغرافيين شبه المنطقة المذكورة بمزرعة واحدة متصلة[4] ؛ وفي المنطقة الجنوبية الشرقية من المغرب أسس بنو مدرار (وهم زناتيون) مدينة سجلماسة التي قامت أساسا على الفلاحة بفضل إمكانيات السقي وعلى المبادلات التجارية الداخلية والخارجية[5] وقد امتد نفوذ هذه المدينة بسرعة ليصل إلى ضواحي مدينة فاس في بعض الفترات، إذ سيطر بنو مدرار ولمدة غير قصيرة على مدينة صفرو، وامتد نفوذهم في الجانب الآخر إلى جبل درن الغربي بسيطرتهم على مدينة أغمات، وفي الجهة الشرقية (شرق سجلماسة) تمت السيطرة على المناطق الواقعة ما بين سجلماسة ودرعة وقد عرف هذا المثلث الخاضع لبني مدرار (سجلماسة - درعة - أغمات) رواجا اقتصاديا نشيطا استطاع أن يجذب إليه التجار الأجانب ويحقق فائضا في بعض المنتجات الفلاحية والصناعية وهذا الفائض لعب الدور الأساسي في خلق المحور التجاري الذي ربط المغرب بالسودان.

عرف الجنوب الغربي تطورا مماثلا فمدينة إيجلي وضواحيها استقطبت بفضل منتجاتها الفلاحية المتنوعة والوفيرة وخاصة قصب السكر وصناعة السكر - استقطبت التجار من مختلف المناطق والجهات ؛ أما مدينة نول فبسبب صناعتها المتميزة المرتكزة على الجلود والفراء وبخاصة صناعة الدرق اللمطية ذات الشهرة العالمية بلورت محورا تجاريا موازيا لمحور سجلماسة، وينتهي المحوران إلى مدن فاس وأغمات فالمراسي الشمالية ولتجنب مضايقة البرغواطيين أسس الأدارسة مدينة تمدولت مكونين بذلك محورا تجاريا جديدا : السودان، تمدولت، إيجلي، أغمات ففاس عبر الدير.

أعجب الجغرافيون والمؤرخون العرب بالنشاط الاقتصادي في المنطقتين الشمالية والجنوبية، فقد سجل لنا ابن حوقل (التاجر البغدادي) إعجابه بمدينة البصرة وكثرة ألبانها ومزارعها ومراعيها وقطنها وكتانها... وبخيرات السوس الأقصى وبرواج سجلماسة التجاري[6] ؛ أما البكري فقد أثار انتباهه خصب المدن الصحراوية مثل مدينة تامدولت، وغنى مدينة أغمات ونفيس وإيجلي وغيرها، أما إمارتي نكور وبرغواطة تامسنا فالإشارات الاقتصادية عنها قليلة، فالبكري اهتم كثيرا ببرغواطة تامسنا لكنه ركز على الجانب العقدي وأفاض الحديث فيه بشكل ملفت للانتباه، ومع ذلك فمن خلال قراءة متأنية ومن خلال إشارة متأخرة عن الفترة وردت عند الحسن الوزان في كتابه وصف افريقيا[7] نستنتج ما يلي :

- إن المنطقة الخاضعة للإمارة البرغواطية كانت آهلة بالسكان إذ بلغ عدد مدنها وقراها أزيد من ثلاثمائة، وعرف إنتاج الحبوب فيها تقدما لا مثيل له في باقي المناطق[8]، وكان لهذه الإمارة اتصال مباشر بالأندلس ؛ وربطت بين البرغواطيين والأمويين في الأندلس علاقات سياسية واقتصادية وخاصة العلاقات التجارية مما يفيد أن هذه الإمارة المغربية التي تحتل أخصب السهول وأهم المناطق الاستراتيجية في المغرب وأكثرها تحكما في الربط ما بين الجنوب والشمال وما بين السودان والأندلس، استفادت من الطرق التجارية الكبرى العابرة لمجالها ؛ وبسبب أنشطتها الاقتصادية المتطورة (فلاحية وتجارية) استطاعت أن تبلغ من القوة السياسية والعسكرية والتنظيمية مستوى فاقت فيه باقي الإمارات بما فيها الإمارة الادريسية.

أما إمارة بني صالح في نكور فكانت أقل شأنا ؛ فهي محصورة في منطقة جبلية ولا تستغل إلا سهلا فيضيا صغيرا يخترقه نهران يعتبران أطول أنهار السفوح الشمالية لجبال غمارة، هما نهري نكور وغيس، ويبدو أن أهمية الإمارة الاقتصادية ارتكزت أكثر على التجارة ؛ فإلى مرسى نكور كانت تنتهي الطرق التجارية في هذه المرحلة[9].

ارتبط هذا الازدهار والتطور النسبي الذي عرفته جل جهات المغرب أساسا بالاستقرار والأمن أولا وبالنشاط الفلاحي والتجارة البعيدة المدى ثانيا ؛ وما يمكن إضافته هو أن هذه الجهات والنواحي قد جمعت ما بين النشاط الزراعي وتربية المواشي والرعي الواسع (الخفيف)، وتبرز داخل هذا النشاط الزراعة المسقية التي حققت تقدما كبيرا استطاعت به الفلاحة تجاوز المعوقات المناخية وتمكنت بفضل منتجاتها المتنوعة والوفيرة ربط اقتصاد المغرب خلال العصر الوسيط - وما بعده بالخارج (الأندلس، المشرق العربي، افريقية والسودان)، وتم بذلك تجاوز النشاط الاقتصادي المعيشي والعائلي بخلق فلاحة وصناعة موجهة للسوق الداخلي والخارجي، بل وظهرت مناطق متخصصة في بعض المزروعات، وجلبت مزروعات جديدة عرفت زراعتها ورواجها نجاحا سريعا طيلة العصر الوسيط[10] ولم يعد المغرب مستعمرة للقمح والزيتون والكروم في عهد الرومان (المثلث الروماني) ومناطق الرعي العشوائي والاقتصاد العائلي المغلق خارج المثلث.

فترة الرخاء التي عرفتها الإمارات الخارجية والدولة الادريسية لم تستمر طويلا فسرعان ما أصبح المغرب منطقة صراع بين القوى العظمى في الغرب الإسلامي آنذاك والتي تمثلها الدولة الفاطمية في مصر والدولة الأموية في الأندلس[11] ؛ وبعودة الحروب سواء الناتجة عن هذا الصراع أو الحروب الداخلية بين أبناء ادريس وبين الإمارات الخارجية، وبين هؤلاء والادراسة فقد المغرب الاستقرار وحيل بين الناس وبين أنشطتهم الاقتصادية إذ لم تعد الظروف ملائمة، وتفاوتت درجات الضرر والجمود من منطقة إلى أخرى ؛ لكن المناطق الواقعة شمال نهر سلا (أبو رقراق) كانت الأكثر تضررا، أما إمارة برغواطة فقد استمرت في نشاطها الاقتصادي بسبب قوتها العسكرية والسياسية، واستمرت المدن (سجلماسة وأغمات ومدن درعة وسوس) في القيام بدورها التجاري لأهمية موقعها ومحيطها الفلاحي ؛ فقد كانت محطات للقوافل، منها تتزود بما تحتاج إليه من مؤونة وعلف وسلع قبل أن تقتحم قفار الصحراء في اتجاه السودان إضافة إلى ما تقدمه من خدمات لآلاف التجار ومساعديهم والذين يقيمون عادة في هذه المدن لعدة أسابيع أو شهور أحيانا في انتظار تكوين قافلة للسفر[12]، وعودة قافلة من السودان ولعل تفاوت الخلفيات الفلاحية لهذه المدن هي التي كانت السبب في إضعاف مدن أخرى واقعة في الجوار مثل فركلة وتدغة وزيز لصالح سجلماسة، ومثل ذلك حصل خلال القرن الرابع عشر الميلادي حيث تدهورت مدينة تامدلت لفائدة مدينة اقا.

العلاقة بين النشاط الفلاحي والتجاري في خلق هذه المدن واضحة ؛ ولعل النشاط الأول كان أكثر تحكما في رسم المسالك التجارية، ونتج عن تفاعل العاملين والعلاقة الجدلية بينهما في حدوث تطور كبير في الهياكل الزراعية، فظهرت الملكية الخاصة للأراضي الزراعية والماء هذه المدن وضواحيها في وقت مبكر، ونتج عن ارتباط هذه المناطق بالتجارة الخارجية توسع العادات الاستهلاكية والرواج التجاري الداخلي الذي طال حتى المناطق المجاورة بسبب ضرب سكة قوية وانتشار التعامل بالنقود، ويتجلى ذلك في كثرة الأسواق التي أشارت المصادر التاريخية إلى كثافتها في بعض الجهات وما يمكن ملاحظته من تعدد الإشارات والإطناب في ذكر الأسواق والتركيز عليها أن الأمر يتعلق بظاهرة غير عادية أثارت اهتمام الجغرافيين والتجار ومنهم التاجر البغدادي ابن حوقل.

جاء حكم الزناتيين المتأخرين (مغراوة وبنو يفرن) في نهاية هذه الفترة ليضر أكثر بالأمن والاستقرار خاصة أواخر أيامهم إذ سلكوا سياسة تعسفية اتجاه السكان وخاصة الفلاحين، ودخلوا في حروب توسعية ضد الإمارات الأخرى، وفي حروب متوالية وتحالفات مع دويلات الشرق وأمويي الأندلس، فأهملت بسبب ذلك الأراضي والإقطاعات وتعرقلت الطرق التجارية وركزت هذه الإمارات الزناتية في مداخيل بيت مالها على فرض الضرائب وابتزاز أموال الناس وأمتعتهم فانتشر الفساد وعمت الاضطرابات وتعطل الانتاج في مناطق نفوذ تلك الإمارات وبلغ بهم العسف إلى درجة مصادرة أقوات الناس والسطو على منازلهم.

انعدام الاستقرار السياسي والاجتماعي وتحول الطرق التجارية نحو الشرق مضاف إلى

ذلك العوامل المناخية الغير الملائمة، أوقف تطور النشاط الاقتصادي وخاصة الزراعة في الكثير من البوادي والسهول الجيدة وفي المدن، وعاد الرعي الخفيف (الواسع) ليحتل حيزا كبيرا، في هذا النشاط، وقد تفاوتت حدة تدهور النشاط الزراعي ما بين المناطق القديمة الاستقرار والمناطق الخارجية عنها وهكذا كانت سجلماسة ودرعة والهبط وسايس وحوض إيناون وممر تازة أكثر الجهات تضررا.

الهوامش :

(1) الأصل في هذه المقالة رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا قدمت لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، عام 1988، وموضوعها "الفلاحة المغربية في العصر الوسيط".

(2) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج. 1، ص. 83، دار الثقافة، بيروت بدون تاريخ.

مجهول : أخبار مجموعة، الناصري السلاوي، الاستقصا البيضاء، 1954، ج. 1. ص. 106.

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن 1938، ص. 79-80-81-90-97-98.

(4) البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، الجزائر، ص. 88-91-110-112-113 ومابعدها.

(5) ابن عذاري، البيان، م.س. ص. 156.

(6) ابن حوقل، صورة الأرض، م.س، ص. 80-81-91-99.

(7) البكري، المغرب، م.س.، ص. 140 و 141، الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج. 1، ص. 153.

(8) المصدر نفسه، ص. 157.

(9) البكري، المغرب، م.س.ص. 90، ابن حوقل : صورة الأرض، م.س.، ص. 78.

(10) ابن حوقل، صورة الأرض، م.س.، ص. 80، البكري، المغرب، م.س.ص. 147، الادريسي : نزهة المشتاق، الطبعة الإيطالية نابولي بدون تاريخ، ج. 3، ص. 227 و 241، مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار الاسكندرية، 1958، ص. 211، الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص. 300 و 329، الحسن الوزان، وصف افريقيا، م.س.، ج. 1، ص. 246.

(11) راجع عن هذا الصراع، الحبيب الجنحاني، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، بيروت 1980.

(12) عن تامدولت انظر مقالا في مجلة هسبريس تامودا 1970، المجلد 11، ص. من 103 إلى 140 وعن طريقة سفر القوافل يراجع كتاب التشوف إلى رجال التصوف للتادلي، ص. 340، والعبدري في رحلته، ص. 273 و 279.